

رابعة العدوية

بحث تحليلي فلسفي تاريخي

للأستاذ مصطفى بك عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية



(صورة فريدة للأستاذ بالزي الافرنجي لم تنشر قط)

الأستاذ مصطفى بك عبد الرازق ، على رأس طائفة العلماء المتنازين ، الذين جمعوا الى دراسة القديم وروعته ، المأموم بالجديد ونصرتة . وهو واسع الاطلاع لدرجة تذهل محدته . فقل أن يفوته شيء من مؤلفات الشرق أو الغرب ، وبخاصة ما كان متصلا بمناها بالثقافة الإسلامية . وهو لهذا يعد بحق أعرف الناس بها .

وما أظن أني تشرفت بزيارته مرة ما : الا وجدته بين تلال من الكتب ' يعمل فيها بحثا وثقيا ' حتى يظهر منها ببقيته ' فيصبح في أعماق نفسه صيغة أوشميدس الذي قال : لقد وجدتها وهو فوق هذا كله رجل جم الأدب ' كريم الحلق ' يكاد يسيل رقة وعدوية ' ولعل لهذه الطباع الجمدة مقرونة بمقدرته العادية ، أكبر الاثر في اجماع الناس على محبته واجلاله وقد تفضل علينا بهذا البحث الذي يراه القراء على الصفحة التالية .

المحرر

هي رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية . ولقبها ابن خلكان بأُم الخير . وذكر أنها مولاة آل عتيك . وعتيك - كما مر من الأزد . والنسبة إليه عتيكي محرّكة وقال ماسنيون في كتابه أصول الاصطلاحات الصوفية : وإن رابعة عتيقية لآل عتيك - بالتصغير - وهي قبيلة من قيس . ولم نر أحداً ممن ترجموا لها ذكر تاريخ ميلادها . ثم إنهم اختلفوا في تاريخ وفاتها . فمن قائل إنها توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة . ومن قائل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة .

قال الشعرائي في الطبقات : وكانت بعد أن بلغت الثمانين سنة كأنها شن بال (١) تكاد تسقط إذا مشت . وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، وكان بموضع سجودها . وهذا يدل على أنها عاشت أكثر من ثمانين عاماً . وذكر « ماسنيون » في كتابه المشار إليه آنفاً . أن رابعة قضت حياتها بالبصرة كأنها مسجونة ، وبها ماتت في سن لا تقل عن ثمانين سنة ، وذلك في عام ١٨٥ هـ ٨٠١ م . ولم تكن وفاتها سنة ١٣٥ هـ ٧٥٢ م كما زعموه ليجعلوا منها تليذة للحسن البصري . وأدلة ذلك صداقتها لرباع ، وكونها لقيت الثوري الذي جاء البصرة بعد سنة ١٥٥ . ومن الأدلة : مارو وامن خطبة محمد بن سليمان الذي ولي البصرة من قبل العباسيين منذ سنة ١٤٥ هـ إلى سنة ١٧٢ هـ لها

وذكر ابن خلكان أن قبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه . على رأس جبل يقال له الطور

لكن ياقوت الحموي ذكر أن هذا القبر ليس قبر رابعة العدوية . إنما قبرها بالبصرة ، أما القبر الذي على جبل القدس فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري الكاتب ، وقد اشتبه على الناس قال الغزالي في الأحياء : ورابعة هذه تشبه في أهل الشام رابعة العدوية بالبصرة

لسنا نعرف شيئاً عن نشأة رابعة وحياتها من قبل أن تكون صوفية . فاتها لم تولد صوفية بالضرورة . ولم يعن المؤرخون إلا بالجانب الصوفي منها ، وجاء في دائرة المعارف للبستاني مانصه : (وفي بعض الروايات أنها تابت عن يد ذى النون المصرى . وذلك أنها كانت فى سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب ذى النون تلك السفينة لغرضه فى بحر النيل . فطلبت إليه رابعة على سبيل التهم أن يسمعهم شيئاً من غناؤه كما أسمعوه . فأشد :

أحسن من قينة ومزمار فى غسق الليل نغمة القارى
يا حسنه والجليل يسمعه بطيب صوت ودمعه جارى
وخده فى التراب منعفر وقلبه فى محبة البارى
يقول ياسيدى ياسندى أشغلى عنك ثقل أوزارى

وكانت بذلك توبة رابعة على يده)

وعقب على ذلك صاحب دائرة المعارف بقوله : (ولكن يظهر أن هذه القصة مصنوعة لبعده العهد بين ذى النون و رابعة كما يعرف من تاريخ وفاتها) وشواهد الوضع فى هذه القصة كثيرة . فأنا لانعرف أن رابعة العدوية زارت مصر . وإن ابتدعت لها الأساطير قبراً بقراءة الإمام يزار ويتبرك به . والشعر الذى فى الرواية فيه من الغثاء ومن اللحن ما يقطع الصلة بينه وبين عصر رابعة العدوية . ويظهر أوضح ظهور أنه من شعر العصور المتأخرة

هذا . وقد ذكر ماسنيون فى مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ التصوف ببلاد الإسلام : (أن رابعة خطبها أبو عبيدة عبد الواحد بن زيد مع علوشانه فهجرت أياها حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : يا شهوانى . أطلب شهوانية مثلك) وذكر فى كتابه فى اصطلاحات الصوفية أن والى البصرة خطبها . وما أظن أن والى البصرة أو عبد الواحد بن زيد كان يرضى أن يخطب امرأة كانت تشرب الخمر فى السفن النيلية ، وتغنى للندمان . وليس فيما بين أيدينا من المراجع ما يدل على أن رابعة العدوية كانت متروجة . بل المأخوذ من الروايات عن حياتها

أنها كانت بعبادتها وحبا لله في شغل عن الزوج والولد . وقد ردت مرتين من خطبها . وفي مجموع الأستاذ ماسنيون ، وفي غيره : (نظرت رابعة الى رباح وهو يقبل صبيا من أهله ويضعه إليه . فقالت : أتجبه ؟ قال نعم . قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موصعا فارغا لمحبة غيره تبارك اسمه ، قال فصرخ رباح وسقط مغشيا عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول (رحمة منه تعالى بكم ألقاها في قلوب العباد للأطفال)

وليس من شأن زوجه أو والده مهما بلغ بها التصوف أن تنكر الخنوع على الأطفال عاشت رابعة العدوية في القرن الثاني من الهجرة ، وماتت في أخريات هذا القرن ، كما ترجمه أكثر من كتبوا سيرتها

ويقول ابن خلكان عنها : « كانت من أعيان عصرها . وأخبارها في الصلاح مشهورة » ويقول عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان ، الأمام أبو محمد عبد الله بن أسد الياقني المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (السيدة الولية ذات المقامات العلية والأحوال الشخصية)

ويقول عنها الأستاذ « ماسنيون » وعن رابعة القيسية ما تعريبه (هاتان الزاهدتان ، وكلتاها من أهل المذهب البصري) كان تحمسهما لحياة الزهد مؤديا إلى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، وإلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، ورابعة تعتبر عند الباحثين في أمور الولاية والأولياء أعظم ولية . وعندى أن من التعسف أن ينسب إلى رابعة العدوية وصاحبها التصدي لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية

ولقد كان العصر الثاني الهجري عصر نشأة التصوف ، وعصر بداية تطوره الأول ، إذ نشأ لفظ « الصوفي » عبارة عن العابد الزاهد اللابس للصوف ، ثم صار يدل مع ذلك على العناية بحال القلوب إلى جانب التمسك بالعبادات الظاهرة وتجدد في تاريخ رابعة العدوية ما يدل على حرصها على التحقق بهذه المعاني . فهي

كانت تلبس الصوف . وكانت تسيكث من العبادة ، وكانت من أزهد الناس في الدنيا روى الشعرائي : أنها كانت تردم أعطاء الناس لها وتقول : « مالي حاجة بالدنيا وذكر صاحب مرآة الجنان ، وابن خلكان عن ابن الجوزي في كتابه « صفوة الصفوة » ، بأسناده متصل إلى عبدة بنت أبي شوال - وكانت من خيار أماء الله وكانت تخدم رابعة - قالت : (كانت رابعة تصلي الليل كله . فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدتها ذلك - وهي فزعة - : يانفس كم تنامين وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور ، ولأن هذا دأبها دهرها حتى ماتت ولما حضرتها الوفاة دعنتي وقالت : يا عبدة لا تؤذني بموتى أحدا ، وكفني في جنتي هذه . وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ، قالت فكفنتها في تلك الجبة وفي خمار صوف كانت تلبسه ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها - في منامي - عليها حلة استبرق ، وخمار من سندس أخضر لم أرقط شيئا أحسن منه . فقلت : يا رابعة ، ما فعلت بالحلة التي كفناك فيها وخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نزع عني ، وأبدلت به ما ترينه على ، فطويت أكفاني وختم عليها ، ورفعت في عليين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة ، فقلت لها ألهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت وما هذا عندما رأيت من كرامة الله تعالى لأوليائه ؟ . قلت فربني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك)

ويدل ما ذكرنا على أنها كانت تلبس الصوف وما إليه من ثياب الشعر ، وأنها كانت كثيرة العبادة منصرفة عن الدنيا

أما اهتمامها بروح العبادة ، وما يحدث في النفس من آثارها ، فدل عليه كثير مما روى من أقوالها . كانت تقول : استغفارنا يحتاج إلى استغفار . وكانت تقول : ما ظهر من أعمال لا أعده شيئا . ومن وصاياها : « أكتموا حسناتكم كاتسكتمون سيناتكم ، ولعل أظهر ما ميزت به رابعة العدوية كلامها في الحب . ويقول

« ماسنيون » إنها استعملت كلمة « الحب » في العشق الألهي ، معتمدة على ماورد في القرآن . وكان من قبلها يتخرجون من كلمة الحب في ذلك المقام والمحبة كما في كتاب « مدارج السالكين » هي سمة الطائفة ، وعنوان الطريقة ومعقد النسبة . يعنى سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم ، وهم الذين قعدوا على الحقائق ، وقعد من سواهم على الرسوم . وعنوان طريقتهم . أى دليلها ، والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق . ومعقد النسبة . أى النسبة التى بين الرب وبين العبد . فأنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والألوهية من الرب ، وليس فى العبد شئ من الألوهية ، ولا فى الرب شئ من العبودية . ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبودية معقودة بها بحيث متى انحلت المحبة ، انحلت العبودية ، ولا تحدد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا إخفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة . وإنما يتكلم الناس فى أسبابها ، وموجباتها ، وعلاماتها ، وشواهداها ، وثمراتها ، وأحكامها وهذه المادة تدور فى اللغة على خمسة أشياء :

أحدها — الصفاء والياض ، ومنه قولهم لصفاء يياض الأسنان ونضارتها — حب الأسنان

الثانى — العلو والظهور ، ومنه حب الماء وحبابه ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ، وحب الكأس منه

الثالث — اللزوم والثبات ، ومنه حب البعير وأحب ، إذا برك فلم يقم الرابع — اللب ، ومنه حبة القلب للبه وداخله ، ومنه الحبة لواحدة الحبوب ، إذ هى أصل الشئ ومادته وقوامه

الخامس — الحفظ والأمساك . ومنه حب الماء للوعاء الذى يحفظ فيه ويمسكه ، وفيه معنى الثبوت أيضا . ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة ، فأنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلب للمحجوب ؛ وعلوها وظهورها منه . لتعلقها بالمحجوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحجوب ؛ ولزومها لزوما لا يفارقه ،

ولأعطاء الحب محبوبه ليه ، وأشرف ما عنده وهو قلبه ، ولا اجتماع عزماته وإراداته وهمومة على محبوبه . فاجتمعت فيها المعاني الخمسة .

هذا ما يقوله ابن قيم الجوزية في معنى المحبة ومنزلتها من التصوف وعند ما كان التصوف في سداخته لعهد رابعة . لم يكن الحديث في أمر المحبة الصوفية طريقاً معبداً . وقد تكون رابعة العدوية أول من هتف في رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا . وجدير بمولاة آل عتيك — التي كانت من فضلاء عصرها ، وأزكاهم فطرة ، وأسماهم نفسا ، وأشداهم عزوفا عن الدنيا وزخارفها — أن يكون انقطاعها إلى الله قد وجه نفسها الشاعرة وجهة حب إلهي فغنت بأناشيده في مثل قولها :

أحبك حبين ، حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحد في ذا ، ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا ، وذاكا

روى هذا الشعر الغزالي في الأحياء ، ونقله ماسنيون ، أيضا . والذي في الأحياء : فكشفك لي الحجب حتى أراكا . وفي الأحياء أيضا : قال الثوري لرابعة . ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا جبالته ، فأكون كالأجير السوء . بل عبدته حباً له وشوقاً إليه

وذكر أبو القاسم القشيري في الرسالة : أنها كانت تقول في مناجاتها : إلهي أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ فهتف بها مرة هاتف : ما كنا نفعل هذا . فلا تظني بنا ظن السوء

وفي « عوارف المعارف » للسهروردي . قالت رابعة : كل مطيع مستأنس ، وأنشدت :

إني جعلتك في القواد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في القواد أنيسي

وكانت تنشد :

تعصى الآله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع
ومن الظواهر التي تسترعى النظر في حياة رابعة العدوية . ما عرف من دوام
حزنها وبكائها

قال الشعراني : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ، وكانت إذا سمعت
ذكر النار غشى عليها زمانا ، وكان موضع سجودها كهية الماء المستنقع
من دموعها
وروى أنها كانت تقول ، محب الله لا يسكن أئنه وحنينه حتى يسكن
مع محبوبه .

قال المترجمون لها : وقال عندها يوما سفيان الثوري : واحزنناه — فقالت :
لا تكذب . بل قل : واقلة حزناه . لو كنت محزونا لم يتهأ لك أن تتنفس . وقيل
لرباح : هل طالت بك الليالي والآيام ؟ قال بهم ؟ قيل بالشوق إلى لقاء الله ؛
فسكت ؛ قالت رابعة : ، لكننى نعم ،

وليس هذا الحزن العميق في نفس السيدة رابعة ، إلا مظهرها كانت تفيض
به نفسها الشاعرة من الحب العميق

فالسيدة رابعة هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف
الأسلامي ، وهي التي تركت في الآثار الباقية نفثات صادقة في التعبير عن محبتها
وعن حزنها ، وإن الذي فاض به بعد ذلك الأدب الصوفي من شعر ونثر في
هذين البابين ، لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمام العاشقين والمحزونين
في الإسلام .

مصطفى عبد الرازق